2

الجزء الثانى

جوهانسبرج

-٩-

كان الوقت فجرا حينما وصلنا إلى مكتب مناجم التاج التى كانت تقع على هضبة وسط التلال المطلة على المدينة. وكانت جوهانسبرج قد أسست حول المناجم عند اكتشاف الذهب عام ١٨٨٦.

ذهبنا فورا إلى رئيس العمال واسمه بيليسو وكان قد سمع عن چاستيس حينما أرسل الحاكم خطابا منذ أشهر لكى يحصل چاستيس على وظيفة كاتب وقدمنى چاستيس على أننى أخوه وعينت حارسا فى المنجم. وكان لكلمة الحاكم وغيره من رؤساء القبائل ثقلها فى المنجم لما يتمتعون به من سلطة على الرجال فى الريف والذين يحتاج إليهم المختصون كعمال. وكانت سلطة المناجم تريد من الرؤساء ترغيب الأشخاص المحليين فى العمل بالمناجم ولذا فكان الرؤساء يعاملون معاملة خاصة وتُخَصص لهم منازل فى أرض المناجم حين حضورهم للزيارة. وهكذا عوملت وچاستيس معاملة خاصة ومنحنا وجبات غذائية وأماكن للنوم وراتباً صغيراً. وكانت السلطات تفصل العمال تبعا للقبائل التى ينتمون إليها ضمانا لعدم تضامنهم وكان ذلك الفصل كثيرا ما يتسبب فى نزاعات بين الجماعات القبلية المختلفة.

وبدأت عملى فوراً كحارس ليلى -وكان عملى بسيطا فقد كنت أنتظر عند مدخل المجمع إلى جانب اللافتة التى تقول «احترس- هنا معبر الأفارقة» وأقوم بفحص مستندات الأفراد الذين يعبرون.

تحت تأثير النجاح تباهيت وجاستيس يوما أمام صديق من إقليمنا كان يعمل بالمناجم بتحايلنا على السلطات. ووشى بنا الصديق عند رئيس العمال الذى استدعانا وقال إنه أبرق إلى الحاكم وأن الحاكم أمر بإرسالنا فورا إلى بلدتنا وكان رئيس العمال غاضبا واتهمنا بالغش والتزوير.

وبعد ذلك قمنا بالاتصال ومقابلة بعض من لهم سلطات وأخبرناهم بمعلومات ملفقة ولكن أُكتُشف أمرنا فى آخر لحظة ولم تفلح محاولاتنا للعمل بالمناجم.

وانتهى بى المقام إلى الإقامة مع أحد أبناء عمومتى ويدعى جارليك وكان يعمل بائعاً جائلاً وأخبرته برغبتى فى العمل بمكتب محاماة. فقال إنه سيبحث الأمر وبعد أسابيع أخبرنى أنه سيصطحبنى لمقابلة أحد أفضل الناس فى جوهانسبرج.

وكانت جوهانسبرج فى تلك الأيام خليطا من المدن الحدودية والمدينة الحديثة. فقد كان الجزارون يقومون بتقطيع اللحوم فى الطريق بجانب المبانى المكتبية. وكانت الخيام تقام إلى جانب المحلات الحديثة والنساء ينشرن غسيلهن إلى جانب المبانى الشامخة. وكان هناك -نظرا لظروف الحرب العالمية- طلب شديد على العمالة ولذا اجتذبت جوهانسبرج الأفارقة من الأقاليم الأخرى وكانوا يجدون عملا فى المصانع وسكنا فى المناطق غير الأوروبية مثل ألكسندرا وصوفيا تاون ومنطقة الوطنيين القريبة وكانت عبارة عن مجمع كالسجون يحوى عدة آلاف من المنازل من طراز صندوق الثقاب مقامة على أرض جرداء.

وذهبت أنا وجارليك وجلسنا فى غرفة انتظار رجل يعمل وكيل عقارات بينما أخبرته موظفة الاستقبال بوجودنا وبعدها أخذت تكتب على الآلة الكاتبة برشاقة وملأنى الإعجاب لأننى لم أكن قد رأيت إفريقيا يستعمل الآلة الكاتبة.

وعند دخولى مكتب رئيسها رأيته شابا إفريقيا تنم ملامحه عن الذكاء والطيبة ويتحدث الإنجليزية بلكنة المدينة ويبدو عليه الانشغال والنجاح وكان اسمه وولتر سيسولو. كان يدير مكتبا عقاريا متخصصا فى ممتلكات الأفارقة. ففى الأربعينيات كان من الممكن للأفارقة حيازة ممتلكات محدودة فى أماكن معينة مثل صوفيا تاون وألكسندرا وكانت ترجع حيازة بعضهم إلى أجيال عديدة. أما فى باقى المناطق الإفريقية من جوهانسبرج فكانوا يستأجرون المنازل من مجلس المدينة.

كان سيسولا قد بدأ يبرز كرجل أعمال وقائد محلى وعندما أخبرته برغبتى فى العمل بالقانون وعن عزمى على التسجيل فى الجامعة للحصول على درجة فى القانون أخبرنى عن محام أبيض يدعى لازار سيدلسكى وقال إنه شخص تقدمى يهتم بتعليم الأفارقة وأنه سيبحث حالتى معه. كنت أعتقد فى فورت هير أن القيادة والنجاح فى العمل والطلاقة فى الإنجليزية تتطلب مؤهلا جامعيا. ولكننى اكتشفت أن وولتر سيسولا لايحمل أى مؤهلات وكان ذلك درسا لى.

كنت وقتها أقيم مع عائلة من الإكسهوسا فى غرفة ذات سقف من الصاج بناها صاحب المنزل خلف سكنه ليدر دخلا إضافيا فى منطقة ألكسندرا.

ووافق لازار سيدلسكى على أن أعمل بمكتبه إلى أن أكمل درجتى الجامعية. وكان مكتبه أحد أكبر مكاتب المحاماة فى جوهانسبرج ويتعامل مع السود والبيض ولكى يصبح الفرد محاميا فى جنوب إفريقيا فإن عليه إلى جانب الدراسة أن يتدرب عدة سنوات مع محام ممارس. وبدأت دراسة ليلية فى جامعة جنوب إفريقيا التى كانت تمنح درجات علمية بالمراسلة.

وكان ضمن ممارسات المكتب مساعدة الأفارقة الراغبين فى الحصول على قرض لسداد قيمة صكوك الرهونات. ورغم أن المكتب كان يتقاضى الجزء الأكبر من القرض فلم يكن لدى الأفارقة بديل. ورغم ذلك فقد كان المكتب -وكان صاحبه يهوديا- من أكثر المكاتب ليبرالية

وكان يقبل أن يعمل فيه أفارقة. وكان صاحبه عطوفا وكان يقول لى دائما إننى لو أصبحت محاميا ناجحا فسوف أصبح نموذجا لمواطنىّ.

ورغم ذلك كانت هناك تفرقة عنصرية فى المكتب مثل إصرار السكرتيرة البيضاء وبطريقة معسولة أن نشرب أنا وزميلى الإفريقى جور الشاى من فناجين خاصة بنا. وكان جور يتحداها ولا يفعل. أما أنا فقد امتنعت عن شرب الشاى فى المكتب. وأيضا، وبينما كنت أُملى بعض المعلومات على سكرتيرة بيضاء دخل عميل تعرفه ولكى تبرهن على أن شخصا إفريقيا لم يكن يُمليها معلومات أخرجت عملة من حقيبتها وطلبت منى الذهاب لشراء شامبو لها. وفعلت.

كان عملى فى البداية بسيطا لكن السيد سيدلسكى كان لا يألو جهدا فى شرح تفاصيل أية حالة وأسبابها وتفاصيل القانون وخلفيته الفلسفية. وكان يؤمن بأن القانون آلة يمكن استغلالها لتغيير المجتمع ورغم ذلك فقد حذرنى من ممارسة السياسة ومن مخالطة المشاغبين الغوغائيين من أمثال جور راديبى وولتر سيسولو.

وكان جور مشاغبا بشكل لم يشك فيه سيدلسكى. فقد كان عضوا فى المجلس الاستشارى للمنطقة الوطنية الغربية وكانت مهمته معالجة مشاكل الوطنيين مع السلطات وكان أيضا عضوا فى المؤتمر الإفريقى والحزب الشيوعى.

وكان جور مثالا للرجل غير الحاصل على شهادة عليا والذى كان أكثر علما وثقافة بمراحل من كثير ممن تخرجوا فى فورت هير وكان أيضا

جرينا واثقاً.

لم أكن الكاتب الوحيد بالمكتب فقد التحق بالعمل بعدى بقليل نات بوجمان وكان مفكرا نابها لطيفا ولم يكن لديه تمييز للون البشرة وأصبح أول صديق أبيض لى.

وفى أحد الأيام كنا فى المكتب وقت الغداء وأخرج نات لفافة من السندوتشات وأمسك أحدها وطلب منى أن أمسك بالطرف الآخر للسندوتش ففعلت وطلب منى أن أقوم بجذب الطرف الذى أمسكه فانشطر الساندوتش قسمين وطلب منى أن آكل. ثم قال إن ما فعلناه يمثل فلسفة الحزب الشيوعى وهو اقتسام كل ما نملك وأخبرنى أنه عضو فى الحزب وشرح لى أوليات مبادئه وشرح لى فى مناسبات أخرى عدة فضائل للشيوعية محاولا إقناعى بالالتحاق بالحزب وكنت أوجه الأسئلة. ولكننى لم أكن أرغب فى الالتحاق بأية منظمة سياسية عملا بنصيحة سيدلسكى.

وكنت أذهب مع نات إلى أماكن عديدة من ضمنها حضور محاضرات فى مقر الحزب وكنت أفعل ذلك من باب الاستطلاع العقلى فقد كنت بدأت أهتم بتاريخ الاضطهاد العنصرى الذى كنت أراه على أنه عرقى فقط بينما يراه الحزب على أنه صراع طبقات ولكننى اعتقدت أن ذلك لا ينطبق على الحال فى جنوب إفريقيا ولكننى كنت أستمع فقط.

وقد قام نات بدعوتى لحفلات عدة يؤمها بيض وأفارقة وهنود وملونون كان ينظمها الحزب ووجدت هناك أناسا لا يعبأون بلون الإنسان غير

أننى كنت أشعر بأننى غير مؤهل للاشتراك فى أحاديثهم المشتعلة فقد كانت أفكارى لا تضارع أفكارهم الناضجة المصقولة.

-١٠-

كانت الحياة فى منطقة ألكسندرا مثيرة محفوفة بالمخاطر. ورغم وجود بعض الأبنية الجميلة كان الحى من مناطق الفقراء القذرة ودليلا على إهمال السلطات. كانت الطرق قذرة غير معبدة مليئة بالأطفال الجوعى أشباه العرايا يجوبون المكان وكان الجو مفعما بدخان مواقد الفحم وكان هناك صنبور مياه واحد يخدم عديدا من المنازل. كانت المنطقة تعرف بالمدينة المظلمة حيث لم تكن فيها كهرباء. وكان المشى ليلا فى طريق العودة إلى المنزل خطرا حيث كانت تخترق الظلام صيحات وضحكات وأحيانا أصوات طلقات نارية. كان الازدحام شديدا حيث كان يحتل كل قدم مربع فى المنطقة إما مبنى متهالك أو كوخ ذو سقف من الصفيح. وكانت البندقية والمدية تسيطر على حياة الناس هناك. أما هجمات الشرطة فكانت مظهرا منتظما للحياة هناك حيث كان يلقى القبض على جماعات من الناس لخرقهم نظام تصاريح المرور أو حيازتهم كحولا أو لعدم دفعهم ضريبة الرءوس. ولكن رغم ذلك كانت المنطقة جنة للأفارقة حيث كانت أحد الأماكن القليلة فى البلد التى كان للأفارقة فيها حق تملك العقارات وإدارة شئونهم دون اللجوء لطغيان المجالس البلدية البيضاء وكانت المنطقة لهذا تمثل أرض الميعاد للأفارقة وخاصة القادمين من الريف. وكانت السلطة تدّعى أن الأفارقة بطبيعتهم غير مؤهلين لسكنى المدن وذلك لتمد وجودهم فى الأقاليم

وفى مناطق المناجم. وكانت الحياة فى ألكسندرا تدحض مثل ذلك الادعاء حيث قطنه أفراد من جميع القبائل وكانوا على وعى سياسى. ويبدو أن الحياة فى المنطقة كانت تعمل على إزالة الفوارق الإثنية القبلية فبدلا من كوننا زولو أو إكسهوسا أو سوثو أو شانجان كنا جميعا ننتمى إلى ألكسندرا. أما الحكومة فكانت تتبع فى تعاملها مع الأفارقة سياسة فرق تسد.

وفى عامى الأول هناك خبرت الفقر كما لم أخبره طوال إقامتى فى قونو. فقد كنت أتقاضى جنيهين فى الأسبوع على أن أدفع منها ثلاثة عشر شلنا أجرة سكنى وكانت حافلة نقل الوطنيين وهى أرخص وسائل المواصلات تكلفنى جنيها وعشر بنسات فى الشهر كما كنت أدفع مصاريف جامعة جنوب إفريقيا وأنفق حوالى جنيه على الطعام علاوة على ثمن الشموع للاستذكار. وكنت فى أيام كثيرة أضطر إلى السير ستة أميال فى الذهاب للعمل والعودة وكانت تمر أيام لا أتناول فيها ما يقيم أودى ولا أغير ملابسى. وكان سيدلسكى قد أعطانى إحدى حلله القديمة التى ظللت أرتديها خمس سنوات حتى أصبح فيها من الرقع أكثر ما بها من قماشها الأصلى.

وبالتدريج بدأت التعود على الحياة فى المنطقة وبدأ ينمو داخلى شعور بالقوة الذاتية وعقيدة أننى أستطيع النجاح خارج المحيط الذى نشأت فيه وببطء اكتشفت أن علىَّ ألا أعتمد على صلاتى الملكية أو دعم أسرتى لكى أتقدم فى الحياة.

وفى نهاية عام ١٩٤١ تلقيت رسالة عن زيارة الحاكم لجوهانسبرج وعن رغبته فى أن يرانى. وعند مقابلته وجدته قد طرأ عليه كثير من التغيير. ولم يذكر شيئا لى عن هربى من فورت هير أو الزواج. وكان دمثا لطيفا ساعلنى بأبوة عن دراستى وخططى للمستقبل وعرف أن حياتى ستأخذ مجرى غير الذى كان قد رسمه لها ولم يحاول إثنائى.

وكان لمقابلته أثر مزدوج فقد شعرت بالانتماء مرة أخرى وبتقديرى لأسرة ثمبو الملكية. وكان الحاكم مليئا بالأسى بخصوص جاستيس وكان يرى أنه يجب أن يعود إلى مفيكزويني وكان جاستيس لا ينوى العودة وساندت جاستيس حينما استدعاه المفوض الوطنى بعد أن كلف والده أحد معاونيه باتخاذ الإجراءات القانونية ضده، وهنا قال معاون الحاكم إن الحاكم قد تبنانى وعلمنى وعاملنى كابنه وأنا الآن أريد إبعاد ابنه عنه. فشعرت بالخجل وقلت لجاستيس إنه يجب أن يعود لكنه رفض.

وفى عام ١٩٤٢ ومن أجل توفير أجرة المواصلات قررت السكنى بالقرب من قلب المدينة فى مجمع عمال المناجم وساعدنى فى ذلك السيد فستايل الذى كان يعمل فى غرفة المناجم حيث كان السكان من أصول إثنية مختلفة ويتكلمون لغات متفرقة وتشتعل بينهم العداوات.

وبعد أقل من ستة أشهر من زيارة الحاكم علمت وجاستيس بوفاة والده فى شتاء عام ١٩٤٢ فأسرع كلانا إلى ترانسكى ووصلنا بعد الجنازة بيوم.

وفى نهاية عام ١٩٤٢ حصلت على درجة الليسانس.. ورغم شعورى بالفخر لهذا الإنجاز فقد كنت أعلم أن الدرجة العلمية ليست جوازا للنجاح.

أما فى المكتب فقد توثقت علاقتى بجور مما ضايق سيدلسكى. وكان جور يقول إن التعليم أساسى لتقدم شعبنا لكن لم يقم شعب أو أمة بتحرير أنفسهم بواسطة التعليم فقط وكان يؤمن بالإتيان بالحلول وليس بإيجاد النظريات. كما كان يقول إن آلة التغيير بالنسبة للأفارقة هى المؤتمر الوطنى الإفريقى الذى كان قد أسس عام ١٩١٢ وينكر دستور العنصرية وله رؤساء ينتمون إلى مختلف القبائل كما أن هدفه هو حقا المواطنة الكاملة للأفارقة فى البلاد.

ورغم أن جور لم يتلق تعليما منهجيا فقد كان يفوقنا جميعا معرفة. وفى أثناء فترة الغداء كان يلقى علىَّ محاضرات مرتجلة وكان يعيرنى كتبا ويزكى لى أشخاصا أتحدث إليهم واجتماعات أحضرها. ومما ترك أثرا عميقا فى نفسى هو التزام جور الكامل بمعركة الحرية وكان يحضر أحيانا عدة اجتماعات فى اليوم الواحد يبرز فيها كمتحدث مرموق. وكنت أحضر مع جور الاجتماعات كمراقب فقد كنت أرغب فى فهم المواضيع التى تناقش. وكانت اجتماعات المؤتمر مليئة بحيوية الحوار والنقاش عن البرلمان وقانون التصاريح والإيجارات والمواصلات وأى موضوع يؤثر فى حياة الأفارقة.

وفى أغسطس عام ١٩٤٣ اشتركت مع جور فى مسيرة كبيرة لمؤازرة

مقاطعة منطقة ألكسندرا لخدمة الحافلات احتجاجا على رفع الأجرة. وكان لتلك الحملة أكبر الأثر علىَّ. وإلى حد ما بدأت أترك دور المراقب. وكانت نتيجة المقاطعة مؤثرة فقد عدلت الشركة عن رفع الأسعار.

وكان سيدلسكى دائم التحذير لى من جور وسيسولو قائلا إنه إن أردت أن أصبح محاميا ناجحا علىَّ ألا أقرب السياسة وإلا فسأقع فى مشاكل مع السلطات وأفقد عملائى وأهدم أسرتى وينتهى الأمر بى فى السجن. وكنت قد بدأت بالفعل أميل للتورط السياسى لكننى التزمت التؤدة غير متأكد مما يجب عمله.

وكان جور أيضا سبب تقدمى الوظيفى فقد قال لى يوما إنه طالما يعمل هو فى المكتب فلن يلتزم أصحاب العمل بعقد معى رغم حصولى على المؤهل الجامعى لأنه هو يقوم بما يلزم ويجلب العملاء للمكتب. ولهذا قرر ترك المكتب قائلا إنه سيفتتح مكتباً عقارياً وأضاف إنه من المهم لحركة الكفاح أن أصبح أنا محاميا ولن يتأتى ذلك سوى بتركه العمل. ونفذ ذلك وحدث ما توقع.

وبدأت أتحرك فى جوهانسبرج فى دوائر كانت فيها الحكمة والتجربة أهم من الدرجة الجامعية. ففى الجامعة كان الأساتذة يتحاشون ذكر قضايا مثل الاضطهاد العنصرى ومجموعة القوانين المتشابكة التى تُخضع الرجل الأسود. ولكن حياتى فى جوهانسبرج جعلتنى أواجه تلك الأشياء يوميا.

وفى عام ١٩٤٣ سجلت اسمى فى جامعة ويتسواتر سراند للحصول

على درجة الليسانس فى القانون وهو نوع من الإعداد الأكاديمى للمحامى تحت التمرين. وتقع الجامعة فى الجزء الشمالى الأوسط من جوهانسبرج وتعرف بويتس ويعتبرها كثيرون على رأس الجامعات المتحدثة بالإنجليزية فى جنوب إفريقيا وكانت تلك الجامعات معملا عظيماً لإفراز القيم الليبرالية. ومن ضمن فضائلها أنها كانت تقبل الطلبة السود على عكس الجامعات الأفريكانية. ورغم أننى هناك اكتشفت مجموعة من البيض المتعاطفين مع القضية والذين أصبحوا أصدقاء وزملاء فيما بعد فإن أغلبية البيض فى الجامعة كانوا عنصريين. وأذكر أننى وصلت متأخرا إلى إحدى المحاضرات فجلست إلى جانب طالب أصبح فيما بعد عضوا فى البرلمان فجمع أشياءه بطريقة ملفتة للنظر وجلس بعيدا. لم يكن هذا التصرف غريبا بل كان هو القاعدة ورغم أن أحدا لم يوجه لى لفظ «كافير» وكانت عداوتهم صامتة لكننى كنت أحسها من الطلبة والأساتذة.

وفى الجامعة التقيت بأفراد عديدين ممن سيشاركوننى نجاحات وفشل معركة التحرير وقد بذل عدد من الطلبة البيض جهدا لإشعارى بأننى مرغوب فىّ. والتقيت چو سلوڤو وزوجته المقبلة روث فيرتس. وكان چو كما هو الآن ذا عقلية جادة ذكيا. وكان شيوعيا متحمسا وكانت روث شخصية متفتحة وكاتبة موهوبة وكلاهما كان من اليهود المهاجرين. وهناك أيضا بدأت صداقة عمرى بجورج بيزوس وبرام فيشر وكان جورج من أصل يونانى أما برام فكان محاضرا خارجيا وابن أسرة مرموقة من الأفريكان وكان والده رئيس وقاضى ولاية أورانج الحرة

ورغم أنه كان باستطاعته أنه يصبح رئيس وزراء جنوب إفريقيا فقد أصبح أحد أشجع وأشد أصدقاء معركة الحرية إخلاصا. كذلك صادقت تونى أودوود وهارولد وولب وچولس برادرى وزوجته سيلما وكانوا جميعا سياسيين راديكاليين من أعضاء الحزب الشيوعى. وكذلك كونت صداقات مع عدد من الطلبة الهنود من بينهم إسماعيل مير، وچيه. إن. سينج وأحمد بهولا ورملال بهوليا. وكان إسماعيل مير مركز تلك المجموعة وشقته الواقعة فى منتصف المدينة مركز التقائنا وأصبحت نوعا من مقر القيادة لشبان حركة التحرر.

وحدث ذات مرة أن كنت أنا وسينج ومير فى عجلة من أمرنا فركبنا الترام رغم أن ذلك كان محظورا على الأفارقة وجاء مفتش التذاكر وقال لهما إن على زميلهما «الكافير» أن يغادر الترام وانفجرا فيه قائلين إنهما لا يفهمان معنى الكلمة وإنه لا يجوز أن يدعونى بذلك اللقب. فأوقف الرجل الترام واستدعى الشرطى الذى اصطحبنا إلى المخفر ووجهت إلينا التهمة وكان علينا أن نظهر فى المحكمة فى اليوم التالى وهنا استدعى مير وسينج برام فيشر للدفاع عنا وأصاب المحققين الذعر من صلات برام العسكرية وأفرج عنا. وهنا رأيت لأول مرة أن العدالة ليست عمياء.

لقد فتحت جامعة ويتس عالما جديدا أمامى، عالما من الفكر والعقائد السياسية والحوار. كنت بين مثقفين بيض وهنود من أبناء جيلى ممن كان مقدراً لهم أن يكونوا طليعة أهم الحركات السياسية فى السنوات القليلة القادمة.■